

التعليم السائل في فكر زيغمونت باومان

Liquid education in the thought of Zygmunt Bauman

حسين لوكيللي¹¹ جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة (الجزائر)،

h.loukili@univ-dbk.m.dz

تاريخ الاستلام: 2023/01/14 تاريخ القبول: 2023/02/03 تاريخ النشر: 2023/03/05

ملخص: يمر النظام التعليمي في أيامنا هاته بنقطة تحول، فالكَم الهائل من المعلومات التي نتمتع بإمكانية الوصول إليها وإيقاعات المجتمع الحديث تتعارض مع مفهوم التعليم الأكثر كلاسيكية. يجب علينا تعديل هذه الفكرة والتكيف مع التغيرات في العالم المعاصر، الذي يتميز بقوة التكنولوجيات الجديدة والترابط. وبالتالي، يجب أن نركز على التعليم من أجل "العملية" بدلاً من التعليم من أجل "المنتج". يقترح عالم الاجتماع والفيلسوف البولندي زيغمونت باومان مفهوم التعليم من أجل حداثة سائلة كبديل لتلك الفكرة التي عفا عليها الزمن عن التعليم التقليدي.

يهدف هذا العمل إلى التعرف على أزمات التعليم وتحديدّها، ودراسة وتحليل التغيرات الاجتماعية والثقافية، وخاصة في أواخر القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين، والتي أثّرت بشكل مباشر على المجال التعليمي. تقودنا إشكالية الحداثة السائلة وتعقيداتها، خاصة في المجال التربوي، إلى إعادة التفكير في الممارسات التربوية والتعليمية، وقبل كل شيء إلى إيقاظ التفكير النقدي لدى الطلاب، حتى يتمكنوا، خارج المجال المدرسي، من معرفة كيفية العيش داخل المجتمع.

كلمات مفتاحية: التعليم؛ الحداثة السائلة؛ تكنولوجيا؛ التحديات؛ المجتمع.

Abstract:

The education system is now going through a turning point. The mass of information to which we have access and the rhythms of modern society are at odds with the more classical concept of education. We must modify this notion and adapt to changes in the contemporary world, characterized by the power of new technologies and interdependence. Thus, we should focus on education for the 'process' rather than education for the 'product'. Polish sociologist and philosopher Zygmunt Baumann proposes the concept of liquid modernity education as an alternative to the outdated idea of traditional education.

This work aims to identify and define the crises in education, and to study and analyze the social and cultural changes, particularly in the late 20th and 21st centuries, which have directly affected the field of education. The problem of liquid modernity and its complexities, particularly in the educational field, lead us to rethink educational and pedagogical practices, and above all to awaken critical thinking in students, so that they can, outside the school field, know how to live in society.

Keywords: education; liquid modernity; technology; challenges; Society.

*المؤلف المرسل: حسين لوكيلي

1. مقدمة

نحن نعيش في عالم ديناميكي دائم التغير، وفي تطور مستمر، عالم سريع الخطى، غالبًا ما تبرر فيه الغاية الوسيلة، عالم يميل إلى التمرکز حول الذات والمادية، حيث المنتج والإنجازات - التي تصبح سريعة الزوال - هي السبب الرئيسي للنجاح و"الرفاه" (bien-être).

لقد تسببت العولمة والاعتماد المتبادل الكوكبي في ظهور تحديات وتحولات جذرية ذات طبيعة اقتصادية وسياسية واجتماعية وقانونية وثقافية، والتي بدورها أدت إلى أزمة تربوية واسعة داخل المجالات الأكاديمية التي انعكست على التعليم. يأتي دور التعليم السائل هنا، وهو مفهوم صاغه زيغمونت باومان للإشارة إلى نوع من التعليم الذي يتكيف مع التغيرات، والذي يأخذ في الحسبان وفي الاعتبار العدد الكبير من الاحتمالات التي يوفرها العالم المعاصر، والتي تتعارض مع الصلابة القائمة ويعد للعيش في عالم متغير مليء بالمعلومات.

لكن ما هو الفرق بين التعليم في عصر ما قبل الحداثة والحداثة السائلة في الوقت الحاضر؟ في هذا العالم الغامض والمضطرب والمقلق والمربك الذي يعيش ويرزح تحت ظل ديكتاتورية حاضر مطلق ومتغير وعابر وسريع الزوال، ما هو الدور الذي يلعبه التعليم/التربية؟

2. الحداثة السائلة: النمو والتطور

كانت التغيرات والتحولات في الجوانب الاجتماعية موجودة دائماً وتحدث من وقت لآخر. لقد وضع القرن الثامن عشر نهاية لعمليات تحول عميقة، وقد نتجت هذه التغيرات عن حركتين: الثورة الصناعية والتنوير، وهو حركة فكرية وفلسفية سيطرت على عالم الأفكار في أوروبا خلال القرن الثامن عشر، "قرن الفلسفة"، حيث "وصف دالامبير القرن الثامن عشر بأنه قرن الفلسفة" (كاسيرر، 2018، ص.78). لقد أحدث هذا الأمر تحولاً جذرياً في المجتمع، وانتقل من نموذج حربي وعقائدي تماماً، إلى مجتمع صناعي قائم على التفكير الحر. ومع إنشاء الصناعة في المدن، كان هناك نزوح جماعي كبير من الريف، مما تسبب في هجرة هؤلاء الناس إلى هذه الأقطاب والمراكز بحثاً عن عمل وظروف معيشية أفضل، مما أدى إلى نموها الهائل والمتسارع. بالنسبة إلى هوبزباوم (Hobsbawm)، "[...] سقطت للمرة الأولى في التاريخ الإنساني الأغلال التي كانت تكبل القوة الإنتاجية للمجتمعات البشرية (...): إذ لم يستطع أي

مجتمع سابق أن يخترق السقف الذي فرضته على الإنتاج بنية اجتماعية قبل-صناعية، وعلوم وتقانة قاصرة، وما يتبع ذلك من التوقف الدوري والمجاعة والموت " (هوبزباوم، 2007، ص.79-80). كانت حركة التنوير الثقافية هي الحركة التي حاربت المذهبية والتعصب وخلعت العقيدة المسيحية عن العرش، والتي استمرت لأكثر من ألف عام في أوروبا، مما أفصح المجال للعقلانية والفيزياء والرياضيات والفنون، وبالتالي بدء الحداثة.

من بين المساهمات المختلفة التي يُعرف زيغمونت باومان بها اليوم، نجد المفهوم الذي ابتكره والذي أسماه بالحداثة السائلة، وهي مجتمع تتغير فيه الظروف التي يتصرف أعضاؤها في ظلها في وقت أقصر من الوقت اللازم لترسيخ وتقوية طرق التصرف في العادات والتقاليد. تشير الحداثة السائلة أو المائعة، وهي مرحلة تقابل الحداثة الصلبة، إلى التغيير المستمر للمجتمعات، وإلى عدم الاتساق وعدم الاستقرار في جميع مستويات الحياة داخل الجماعة، حيث احتلت الجماعة (collectivité) والشعور بالانتماء مقعدًا متأخرًا، خلف الفردانية. إن المواد الصلبة مستقرة وتحتفظ بشكلها وتستمر بمرور الزمن. في المقابل، السوائل لديها القدرة على تغيير الشكل بسهولة مع الحفاظ على حجم محدد. "الميوعة هي سمة المواد السائلة والغازية، وتؤكد الموسوعة البريطانية أن المواد السائلة والغازية تتميز عن المواد الصلبة "بعدم قدرتها على الاحتفاظ بقوة التماسك بين مكوناتها في حالة السكون"، ومن ثم "تغير شكلها باستمرار ما دامت تتعرض لإجهاد... المواد السائلة هي إحدى صور الموائع، وتعزى خواصها المميزة سألقة الذكر إلى أن "جزئياتها لا تتماسك في ترتيب منتظم إلا في بضعة أقطار جزئية" (باومان، 2016، ت، ص. 41). إن إذابة المواد الصلبة تعني قبل كل شيء إسقاط الالتزامات التي عفى عليها الزمن، وتقف في طريق الحساب العقلاني للنتائج؛ وعلى هذا الأساس، تأتي "إذابة المواد الصلبة" على هذا النحو لتترك الشبكة المعقدة للعلاقات الاجتماعية بأسرها تتداعى ونهار،

فتصير عارية مكشوفة، ومجردة من السلاح، ومنبوذة في العراء، وعاجزة عن مقاومة قواعد الفعل ومعايير العقلانية التي توحى بها من المبادرات التجارية والصناعية وتشكلها، بل وعاجزة عن منافستها بصورة مجدية " (باومان، 2016، ت، ص. 44).

بالنسبة لباومان، في هذه الحالة من السيولة، يتم تعطيل البنية الاجتماعية الصلبة بأكملها، مما يؤدي إلى تفكيك جميع القوالب التقليدية والقيم الحالية، مما يؤدي إلى قلب عمل الفرد الذي يتخلى عن مرجعيته. إنها عملية تدمير للبناء، واستبدال قيم معينة وإنشاء نظام جديد، بقيمه الخاصة لتوافق وتلائم العلاقات الإنسانية، حيث لا تتوقف الحياة ولا يمكن أن تتوقف، لأنها كذلك مُحدّدة بوصفها بحث مستمر عن التحديث، لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك، ينتهي بهم الأمر إلى استبعادهم. "التدمير الخلاق" موضحة الحياة السائلة، ولكن ما يغفله هذا المصطلح ويسكت عنه هو أن التدمير يستهدف حيوات أخرى، بمن في ذلك البشر الذين يحيون هذه الحياة. فالحياة في المجتمع الحديث السائل هي نسخة مخيفة من لعبة الكراسي الموسيقية تحولت إلى واقع حقيقي. ويكمن الرهان الحقيقي في هذا السباق في النجاة (المؤقتة) من الاستبعاد والإدراج في صفوف الهالكين، ويكمن كذلك في اجتناب الإلقاء في سلة المهملات. وما دامت المنافسة تتحول إلى منافسة عالمية، فإن الجري لا بد من أن يكون حول مضمار عالي " (باومان، 2016، ث، ص. 24). إن الحياة السائلة الحديثة هي تمثيل يومي للزوال الكوني الشامل. لقد أنهى هذا المجتمع السائل الحديث استدامة الأشياء الموجودة فيه، وأصبح كل شيء يمكن التخلص منه وقابل للرمي. " في المجتمع الحديث السائل، تستحوذ صناعة التخلص من النفايات على المواقع القيادية في اقتصاد الحياة السائلة. ويقوم بقاء أفراد ذلك المجتمع ورفاهيتهم على السرعة التي يتم بها إرسال البضائع والمنتجات إلى عالم النفايات، علاوة على السرعة والكفاءة في التخلص منها. في ذلك المجتمع، لا يسلم شيء من قابلية التخلص بعد الاستعمال، فما من شيء يمكنه أن يمكث في ذلك المجتمع أطول من مدة الترحيب به

" (باومان، 2016، ث، ص.23). نحن نعيش في سيناريو مصمم للتغيرات والبدائل، مما يؤدي إلى قلب تصرفات الأفراد.

إن السبب المباشر والمركزي في هذا التحول الكبير هو السوق وما ترتب عنه من هيمنة النزعة الاستهلاكية. ومع الثورة الاستهلاكية تكتسب السعادة مفهوماً مُغيّراً، حيث ترسّخ في أذهان المستهلكين أن الاستهلاك المتنامي هو الطريق السالك نحو السعادة العظمى. "إن الحياة السائلة حياة استهلاكية، إنها تجعل من العالم بكل أحيائه وجماداته موضوعات للاستهلاك، تفقد نفعها عند استخدامها (وتفقد معه سحرها، وجاذبيتها، وإغواءها، وإغراءها)، إنها تشكل معايير تقييم أحياء هذا العالم وجماداته وفق نموذج موضوعات الاستهلاك. وهذه الموضوعات لها عمر افتراضي نفعي قصير، وإذا انتهى فلا يصلح استهلاكها (...) فإذا فقدت صلاحيتها، وجبت إزاحتها من ساحة الحياة الاستهلاكية إلى عالم التحلل الحيوي وشركات القمامة حتى تفسح المكان لغيرها من موضوعات الاستهلاك الجديدة." (باومان، 2016، ث، ص.30-31).

لقد مر وانتقل المجتمع من بنية صلبة إلى حالة سائلة مشوهة، نتيجة للتحويلات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، التي تسارعت بسبب تأثير تقنيات الديجيتال أو ما يعرف بـ التكنولوجيا الرقمية، التي بدأت بين أواخر الخمسينيات والسبعينيات، بدءاً من اختراع الترانزستور و " هو وحدة قياس صغيرة جداً تسمح بمرور التيار الكهربائي من خلالها بمقدار يختلف باختلاف التيار الداخل لها أي أنها تسمح بالتحكم بشدة تيار كهربائي حسب شدة تيار كهربائي آخر " (عيد، 2020، ص.41)، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك مع الكمبيوتر. في خضم البحث، اصطدموا في النهاية بتقنية تُعرف باسم الإنترنت. علاوة على ذلك، فإن المعرفة بنظام التعليم الرسمي ليست جذابة لرجال الحداثة السائلة. وبالتالي، هناك ميل متزايد إلى الهروب والنفور من التعليم الرسمي في المدارس والجامعات. الهدف هو تجنب التعليم الذي

من المفترض أنه يشكل التشابه. يشير إلفين توفلر (Alvin Toffler) إلى أنه " بالنسبة للتعليم، يقتضي الأمر الآن إعادة صياغة للمفاهيم الخاصة به، وهي عملية عميقة جدا (...) سيتطلب التعليم، تماما كما هو الحال بالنسبة لوسائل الإعلام، انتشار قنوات جديدة وزيادة كبيرة في تنوع البرامج. فلكي تعد المدارس الناس ليعيشوا بشكل صحيح في مجتمع الموجة الثالثة وليلعبوا دورا منتجا في ذلك المجتمع يتعين أن يحل نظام غني بالاختيارات محل نظام يفتقر إلى حرية الاختيار" (توفلر، 1996، ص. 165). يطمح رجال الحداثة ونساءها إلى إبراز قدراتهم ومعارفهم. وهم يريدون أن يفعلوا ذلك خارج نظام التعليم الرسمي. هذا النمط من التربية والتعليم هو ما يتبناه أيضا ويدافع عنه هاورد غاردنر (Howard Gardner)، حيث يقول: " عندما يتحدث المرء عن صقل أنواع معينة من العقول، فإن الإطار المرجعي المباشر لذلك هو إطار التعليم، فهذا الإطار يعد ملائما من عدة نواح: ويتحمل المربون المعينون والمؤسسات التعليمية المجازة العبء الأكثر وضوحا في تعريف وتدريب العقول الشابة. إلا أنه يجب علينا مباشرة أن نوسع رؤيتنا إلى ما هو أبعد من المؤسسات التعليمية المتعارف عليها. ويلعب أولياء الأمور، والأنداد، ووسائل الإعلام في ثقافتنا اليوم - وفي ثقافتنا غدا - أدوارا لا تقل أهمية عن الأدوار التي يلعبها المدرسون المؤهلون والمدارس الرسمية" (غاردنر، 2008، ص. 24).

3. التغييرات والحاجة إلى الثقافة والتربية والتعليم

في بداية الألفية الجديدة، حدثت تغييرات جذرية قلبت طريقة حياة جميع سكان الأرض تقريبًا. التحولات الأكثر أهمية هي ذات طبيعة اقتصادية وسياسية واجتماعية وقانونية وثقافية. تعمل العولمة والاعتماد المتبادل (l'interdépendance) الكوكبي على تغيير جذري لطريقة إنتاج الثروة وإنفاقها، والسلطة السياسية للدول القومية، والثقافة وطرق التعامل مع المواطنين الأفراد، مع زيادات هائلة في الحركة والتنقل، واللقاءات الارتباطات بين النساء والرجال الذين

يختلفون من حيث المستوى الاقتصادي والتعليم واللغة والثقافة والدين. "كما أن باحث كجون شولت لا يفرق ما بين مفهوم العولمة والمفاهيم السابقة كالتدويل والاعتماد المتبادل" (زيري، 2015، ص. 39). لا يمكن أن تفشل هذه التغيرات في التأثير على فكرة التعليم.

في مجتمع معقد، من الضروري أن يكون الشخص منذ الطفولة قادرًا على اكتساب هوية مستقرة ومتجذرة ثقافيًا، ولكن أيضًا منفتحة على المقارنة والتفاعل والحوار مع جميع البشر الآخرين، " لذلك علينا أن نتعلم كيف "نكون هنا" فوق الكوكب. ونعني بقولنا أن نكون هنا، أن نتعلم كيف نعيش، كيف نتقاسم الأشياء بيننا، وكيف نتواصل، وكيف نتوحد فيما بيننا " (موران، 2002، ص. 69). في زمن التعددية والتعقيد تحديدًا، من الضروري البدء من جديد من الثقافة، وإعادة اكتشاف وتعزيز حب العلم والمعرفة. يتعلق الأمر بمسألة القدرة على معرفة كيفية توجيه الذات في غابة المعلومات، والتمييز بين المعرفة والتخيلات والأحلام القائمة، وبين المعلمين الجادين والدجالين المخادعين، وبين المصادر الموثوقة أو غير الموثوقة، وبين النوايا المكونة والمتلاعبة.

فيما يتعلق بقيمة التعليم، اليوم، أيضًا، لتعزيز الإثراء الثقافي الملائم، من الضروري والملح تعزيز تعليم متجذر في الإيمان الراسخ بقابلية جميع البشر وقدرتهم على التعلم (éducabilité)، بغض النظر عن مكان ولادتهم، ونسبة ذكائهم الموروث، وجميع خصائصهم العرقية أو الثقافية. كل إنسان، في كل فترة تاريخية (الزمان) وفي كل ركن من أركان الأرض (المكان)، محكوم عليه بالتعلم: بدون الوجود المادي والدور الكفؤ للمعلم، وبدون أي مساعدة خارجية، لن يتمكن المولود حتى من البقاء على قيد الحياة. يمثل كل تعليم جيد طريقًا مختصرًا (raccourci)، بمعنى الاستفادة المثلى من الماضي لبناء المستقبل بشكل جيد، فبالنسبة إلى غوته (Goethe)، فإن " من لا يعرف أن يتعلم دروس الثلاثة آلاف عام الماضية، يبقى في

العتمة" (صادق الأعرجي، 2020، ص. 134)، فكل إنسان يجهل الماضي ولا يستلهم من عبره يعيش إفلسا فكريا ولا يستطيع فهم الحاضر. على وجه التحديد في مجتمع تعددي ومعقد، يواجه أزمة القيم والتوجيه (**orientation**)، والتي تؤدي بشكل متزايد إلى مواقف عنيفة ومدمرة وحتى مرضية في بعض الأحيان، لذلك فإن التدخل التربوي ضروري. للتعرف بشكل أفضل على التغيرات والتحديات التي تطرحها وتفرضها العولمة وظهور مجتمع متعدد الثقافات وإدارتها، ومن أجل تحقيق العديد من الأهداف الثقافية المذكورة أعلاه، من الأهمية بمكان الإنطلاق من جديد من التعليم. تتطلب الحياة والنمو في المجتمعات الديمقراطية فترات تعليم حتمية، فلن تتمكن المجتمعات الديمقراطية أن تحيا وتحافظ على بقائها واستمرارها بدون وجود مواطنين متعلمين. "ربما تستحوذ الظروف المعاكسة على التعليم والمعلمين، لكن المجتمع الديمقراطي (أو المجتمع المستقل، بتعبير كورنيليوس كاستورياديس) لا يعرف بديلا عن التعليم، والتعليم الذاتي باعتبارهما أداة للتأثير في مجرى الأمور التي يمكن أن تتلاءم مع طبيعتها، وإن استعصى الاحتفاظ بهذه الطبيعة زمنا طويلا من دون "منهجية تربوية نقدية" إنها التعليم وهو يصل إلى أقصى غاياته النقدية، "فيجعل المجتمع يشعر بالذنب"، "ويثير الشك" عبر إثارة ضمائر البشر" (باومان، 2016، ث، ص. 36).

انطلاقًا من الحاجة التربوية والتعليمية الأساسية للإنسان، تبرز أهمية وإلحاح التفكير في هذا الفعل، من أجل دراسة واختيار الأهداف والمضامين والأساليب والمنهجيات والوسائل. تذكر مارثا نوسباوم (**Martha Nussbaum**) (2006) كيف أنه على الرغم من أهمية التربية والتعليم العام للحفاظ على الأنظمة الديمقراطية حية، تركز المدارس والجامعات بشكل أكبر على تعزيز التخصصات القريبة من العلوم والتكنولوجيا، بدلاً من تعزيز مهارات الطلاب النقدية والإبداعية. "لدى الديمقراطيات اليوم عقلانية عظيمة وقوى تخيلية. ومعرضون أيضا إلى بعض

العيوب في المنطق، لضيق الأفق، التعجل، الخرافة، الأنانية، ضيق الروح. يضحكم تعليم مبني على التكسب في السوق العالمي هذه النواقص، منتجة تبليدا طماعا وتقنيا مدبرا منصاعا والذي يهدد صميم الحياة الديمقراطية ذاتها " (نوسباوم، 2016، ص. 179).

4. تحديات التعليم في الحداثة السائلة:

نحن نواجه تحديات جديدة، والتي تنطوي على تغييرات ومطالب في مجال التعليم، وفي مقدمتها فرصة التفكير في أشياء جديدة لابتكار طرق أخرى للقول والفعل. يرفع باومان هذا التحدي. يشير باومان إلى أن الأمر يتعلق بإعادة ضبط وتحديد معنى الزمن، حيث قال: "ويمكنني القول إن هذا الظرف – أكثر من أي أمر آخر – يتميز بإعادته البحث (الفريد حتى الآن) عن معنى الوقت" (باومان، 2016، أ، ص. 226-227). وبالتالي، فإنه يسجل تحول الزمن الخطي إلى زمن نقطي. تصبح الحياة هي اللحظة الخالصة، "إن الوقت في عصر المجتمع الاستهلاكي في الحداثة السائلة ليس دوريا ولا خطيا، كما كان في المجتمعات الأخرى المعروفة من التاريخ الحديث أو ما قبل الحديث، وأستطيع القول إنه نقطي مفتت إلى مجموعة من الأجزاء المنفصلة، وكل جزء يتضاءل إلى نقطة مقارنة بشكل أكثر مباشرة لكمالها الهندسي للابعدية" (باومان، 2016، أ، ص. 227).

في "الحداثة السائلة" يأخذ الاختيار السبق على الطاعة. هناك خيارات وليس قواعد، والمرونة أصبحت المصطلح الصحيح لنقص وغياب البنيات. "فالمرء يمكنه أن يتعلم أداء نشاط ما في وجود مجموعة من القواعد الثابتة في بيئة مستقرة يغلب عليها التكرار، وتشجع التعلم، والتلقين، والحفظ، والتطبيق فيما بعد. أما في بيئة غير مستقرة فإن الحفظ واكتساب العادات، وهما السمتان البارزتان للتعلم الناجح يأتيان بنتائج عكسية، بل وربما ينجم عنهما عواقب وخيمة" (باومان، 2016، ب، ص. 40).

يوضح باومان، في "تحديات التعليم في الحداثة السائلة"، أننا نعيش في مجتمع سائل، حيث تعني الرغبة في الحداثة أن كل شيء يخضع للتجديد المستمر وعملية المراجعة الدائمة. التربية السائلة أو التعليم السائل هو التعليم الذي يُفهم على أنه عملية؛ إنها تنتقل من كونها معرفة إلى الأبد إلى معرفة للاستخدام الفوري، يمكن التخلص منها (**jetable**)، نظرًا لأن العالم يتغير باستمرار، "وهكذا فإن تعلم أسبقية التخلص من الأشياء على تملكها صار أحد فنون الحياة السائلة وإحدى المهارات اللازمة لممارستها" (باومان، 2016، ث، ص. 22). يحدد باومان وي طرح 3 تحديات يجب أن يواجهها التعليم الحالي:

1.4 تحدي التعامل مع الكم الهائل من المعلومات المتاحة.

نحن نرى تغييرات عميقة في مجتمع ما بعد الحداثة، ومع ذلك، في التسعينيات، كان الابتكار العظيم هو الإنترنت. يمكننا أن القول أن البشرية متصلة بالكامل تقريبًا، والراحة التي يوفرها الإنترنت تسمح للمعلومات بالوصول إلينا، على عكس الأزمنة السابقة، أصبحت المعلومات فورية. يقول إلفين توفلر في إشارة إلى التدفق المعلوماتي المميز لاقتصاد السوق المعاصر: "إن المعلومات أكثر المواد سيولة، وهذه السيولة هي بالذات العلامة المميزة لاقتصاد يتزايد فيه اعتماد إنتاج وتوزيع السلع والخدمات بشكل عام (منتجات غذائية، طاقة) على التبادل على المستوى الرمزي" (توفلر، 1995، ص. 159). لقد أوضح زيغمونت باومان أن التعليم هو ضحية للحداثة السائلة، وأن التفكير يتأثر بالتكنولوجيا، ونحن مغرمون ومفتنون بمصادر الوسائط الرقمية بسبب خوفنا من أن يتم التخلي عنا. "ويرى العديد من العلماء أن الفضاء السيبراني أداة للتعليم والتعلم؛ فهو فضاء ثقافي يقوم الأفراد من خلاله بالتفكير، والإحساس، وإجراء التفاعلات الثقافية والاجتماعية، فالفضاء السيبراني هو فضاء ثقافي" (شحاتة، 2008، ص. 315). لقد أوضح باومان أنه لا يمكن إنكار أن الإنترنت قد جلب لنا مزايا عظيمة، ولكن مثلما جلب المزايا جلب معه

أيضاً عيوباً، خاصة في الجانب الشخصي، فإن التطبيق العملي في طريقة الحصول على المعلومات قد حول الكائن البشري إلى كائن آني وفوري، بدون صبر ويعاني صعوبة في التركيز.

ينتقد باومان كون التعليم الرسمي، وخاصة التعليم العالي، قد تم تحويله إلى سلعة وأصبح منتجاً آخر للمجتمع الاستهلاكي، إذ لم يعد عملية بل أصبح منتجاً. في مقابل تسليع كل شيء تعليمي وخصخصته والاتجار به، لا بد للمعلمين من أن يعرفوا التعليم العالي بأنه مورد حيوي للحياة المدنية الديمقراطية للأمة. ومن ثم فإن المهمة الصعبة التي لا بد من أن يضطلع بها الأكاديميون والعاملون في قطاعات الثقافة والطلاب والمنظمون للعمل تتمثل في اتحادهم ومعارضتهم لتحويل التعليم العالي لسوق تجاري.

إن الثورة الرقمية أو ما يعرف أيضاً بثورة الديجيتال في القرن الماضي هي الأكثر تأثيراً على مجتمعاتنا، من خلال إدخال الأجهزة التكنولوجية، وخاصة الإنترنت. مما لا شك فيه أن الثورة الرقمية أحدثت آثاراً اجتماعية غير محدودة وتغيرات واسعة النطاق في أنماط حياة الناس، وزيادة وتحسين القدرة على التواصل والحصول على المعلومات. "إن استخدام شبكة الإنترنت في التعليم أدى إلى تطور مذهل وسريع في العملية التعليمية، كما أثر في طريقة أداء المعلم والمتعلم وإنجازتهما في غرفة الصف" (الفريجات، 2014، ص. 209). يتيح الإنترنت الوصول الفوري إلى جميع أنواع المعلومات المخزنة والمتاحة باستمرار وبشكل دائم لمعاينتنا (consultation). لم يعد من الضروري حفظها أو إعادة صياغتها، ولكن هناك صعوبة في القدرة على التمييز بين المعلومات المناسبة وغير المناسبة. يذكر باومان أن: من بين المهارات الواجب توفرها لدى الأفراد في مجتمع اليوم حماية أنفسهم من كثرة المعلومات.

2.4 التعايش مع استبداد وطغيان اللحظة (فقدان القدرة على التفكير على المدى الطويل) والتكيف مع السرعة المتنامية لتغيير الأشياء.

لقد أشار العالم البولندي إلى المجتمع الحديث بإيجاز على أنه الحياة في السيولة. في هذا النموذج الاجتماعي الجديد، يسود فقدان الإحساس بالزمن والحياة المحمومة، التي تتمحور حول أخلاقيات الحاضر وتحويل جميع القيم الاستبدادية والمُوَحدة؛ إن ثقافة التسرع أو ما يسميه جيل فينكلشتاين (Gilles Finchelstein) ديكتاتورية العجلة (La dictature de l'urgence) وغياب العلاقات المستقرة والدائمة مع الأفراد الآخرين، تعرض للخطر وتهدد الأبعاد التأسيسية الأكثر حميمية لشخصية الإنسان وسلوكه، مثل التطلعات المستقبلية والقدرة على بناء الذات بمرور الزمن كأشخاص ضمن أفق بعيد للمعنى، وبالتالي يصبحون ذواتًا قادرة على التفكير النقدي، والالتزام بمبادئ التنظيم الذاتي، وخلق علاقات حميمة مُرضية ومُطمئنة تنبثق عنها المشاعر التي تحقق التوازن العاطفي الذي هو بالتأكيد ليس بالأمر الهين. " يصف توماس هيلاند إريكسن طغيان "اللحظة" بأنه السمة الأكثر بروزًا للمجتمع المعاصر وسمته الأكثر ابتكارًا كما يزعم: إن عواقب العجالة المفرطة ساحقة، إذ يخضع كل من الماضي والمستقبل باعتبارهما فئتين ذهنييتين إلى طغيان اللحظة... وحتى الحاضر مهدد لأن اللحظة القادمة تحل بسرعة جدا بحيث يصعب العيش في الحاضر " (باومان، 2016، أ، ص. 212). حاليا، يعيش معظم الناس يومهم دون الاكثرات بالمستقبل. إنهم يتجنبون أي شيء يستغرق وقتًا طويلاً للحصول عليه أو أي شيء غير مؤكد، حيث يقول جيل ليبوفتسكي: " يريد الإنسان أن يعيش الحاضر ولا شيء غير الحاضر، ولم يعد يرغب أن يعيش وفقا للماضي والمستقبل، عندما يبدو المستقبل مهددا وغير مؤكد، لا يتبقى إلا الانطواء على الحاضر الذي لا نتوقف عن حمايته وتديره وإعادة تدويره في شباب لا يزول " (ليبوفتسكي، 2018، ص. 55-56).

لقد فقدنا القدرة على التفكير على المدى الطويل، ومن المفارقات أن التعليم هو استثمار طويل الأجل. هذا هو السبب في صعوبة تكييف النظام التربوي التعليمي

مع حداثة المجتمع. لا يمكن التفكير في إنشاء "مشروع حياة" كما كان يتم من قبل. يتسم العالم السائل بإيقاع جامح وسرعة مذهلة تجعل كل لحظة يجب أن تعيشها على حدة: تتكون الحياة من حلقات صغيرة وكل حلقة لا ترتبط بالضرورة بالحلقة الموالية. يجب أن يكون أحد أهداف حياتنا هو تنظيم وتوحيد هذه الحلقات. يشير باومان إلى هذه الخاصية، حيث يرى أن "التحول الرابع هو انهيار التفكير والتخطيط والفعل طويل الأجل (...)" وقد أفضى ذلك إلى تحول التاريخ السياسي وأنماط الحياة الفردية إلى سلسلة من مشروعات وحلقات قصيرة الأجل، وإلى مشروعات وحلقات لانهائية بالأساس من دون سلسلة مترابطة يمكن وصفها بدقة في إطار مفاهيم من قبيل "التطور" و "النضج" و "التدرج الوظيفي" و "التقدم" (وجميعها مفاهيم توحى بسلسلة مترابطة تتمتع بمسار محدد). فالحياة المفككة للغاية تدفع إلى "مسارات أفقية" لا "مسارات رأسية"، (...) ومن ثم فهي تتطلب مجموعة مختلفة من المهارات وتديروا مختلفا لمصادر القوة " (باومان، 2017، ص. 27).

يوضح زيغمونت باومان أن الثقافة السائلة الحديثة لم تعد ثقافة تعلم وتراكم بعد الآن، بل هي ثقافة العزلة والانفصال (القطيعة) والنسيان. هذا الأمر يضعنا أمام تحول مس آليات التعلم التقليدية التي كان من بين شعاراتها أن "آفة التعلم النسيان"، لكن مع باومان، فإن التعليم في زمن الحداثة السائلة يجعل النسيان شرطا ضروريا في عملية التعلم. يقول باومان في هذا الاتجاه: "وهذا يعني أن الحياة الاستهلاكية هي حياة من التعلم والنسيان السريعين. يعد النسيان مهما بقدر التعلم، إن لم يكن أكثر، حيث إن هنالك "ممنوعا" في مقابل كل "واجب" " (باومان، 2016، أ، ص. 197).

في مجال التعليم، يجب مراعاة مفهوم التعلم مدى الحياة حيث ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار، لأن الحداثة السائلة وبالتالي المجتمع تتطلب تجديداً مستمراً للمعرفة والتكوين.. فحسب باومان، "نحن بحاجة إلى التعلم مدى الحياة ليمنحنا الخيارات، لكننا نحتاجه أكثر لتحرير الظروف التي تتيح الخيارات لنا ومن داخل إرادتنا" (باومان،

2016، أ، ص. 250). وبالتالي، يجب أن يكون دور الجامعات هو تعزيز تحرر الطلاب من خلال تزويدهم بالمهارات والمعارف وكذلك إقامة صلة مع مجتمع الكبار. لقد " استغرق الأمر أكثر من ألفيتين بعد أن ابتكر حكماء اليونان القدماء مفهوم التربية من أجل فكرة التعلم مدى الحياة. لتتحول من تضاد (تناقض في المصطلحات) إلى حشو (شبيه بقولنا "زبدة زبدية" أو "حديد معدني"، لكن هذا التحول الملحوظ حدث مؤخراً - في العقود الأخيرة الماضية - تحت تأثير سرعة التغيير الحديثة التي طرأت على الظرف الاجتماعي الذي وجد فيه الطرفان الأساسيان في عملية التعليم، المعلمون والمتعلمون على حد سواء، أنفسهم ملزمون على التصرف " (باومان، 2016، أ، ص. 237).

3.4 تنسيق العلاقة بين المعلم والتلميذ/الطالب ومناغمتهما.

يمكننا أن نرى تغييرات ملحوظة في السيناريو التعليمي في الحداثة السائلة، في شكل الإنتاج، والتوزيع، والاكتساب، والاستيعاب والاستخدام، حيث لم يعد التلميذ/الطالب شخصاً سلبياً، ليصبح جزءاً من بناء المعرفة. يعتقد زيغمونت باومان أنه لا توجد طريقة للعودة إلى الوضع الذي كان فيه المعلم هو الخبير الوحيد والمصدر الوحيد والمرشد الوحيد. بهذا المعنى، لا نحتاج فقط إلى تغذية الطلاب بالمحتوى، ولكن بالتفكير النقدي القادر على قلب النماذج والأنماط غير القادرة حالياً على التعامل مع السيناريو الحالي. " من حسن الحظ أنْ مَنْ نحتاج إلى مشاركتهم في مثل هذا التحول من مؤيديه بالفعل. فمعظم المدرسين والمسؤولين الأكاديميين وصنّاع سياسات التعليم يرون أن تعليم التفكير النقديّ يجب أن يُصبح أولوية، ويرغب أصحاب الأعمال في توظيف المزيد ممن يتمتعون بمستوى جيد في مهارات التفكير المنطقي. ثم إنّ الآباء والأمهات لا يرغبون في تنشئة أغيبياء لا يتسلحون بالمؤهلات اللازمة للتوظيف، وقد أظهر الأطفال في كل المراحل التعليمية أنهم

يستجيبون جيداً عند إدراج موضوعات التفكير النقدي في المنهج " (هابر، 2022، ص. 115).

تدهورت علاقة المعلم مع تلميذه. سابقاً، كان السبيل الوحيد للوصول إلى المعرفة هو الأستاذ، فطريق الطالب الوحيد لاكتسابها هو المعلم، الذي لم يقتصر دوره على تعليم التلميذ كيفية التحدث أو القراءة من كتاب فحسب، بل ساعده أيضاً على تشكيل شخصيته. لقد اختفت تلك العلاقة. الآن يتعين على المعلم التنافس مع وسائل التواصل الاجتماعي والكم الهائل من المعلومات التي توفرها. يجلب هذا السيناريو الجديد تحديات كبيرة إلى الخلف أو الجيل اللاحق، فمع وصول الإنترنت، نواجه إمكانيات وتحديات وشكوكاً جديدة في عملية التدريس-التعلم. لا يمكننا أن نتوقع وننتظر أن تكون الشبكات الإلكترونية هي الحل السحري لتعديل العلاقة التربوية بعمق، لكنها ستسهل كما لم يحدث من قبل البحث الفردي والجماعي، والتبادل بين الأساتذة مع بعضهم البعض، والطلاب مع بعضهم البعض، وكذا التبادل بين الأساتذة مع الطلاب. في هذا الاتجاه، هناك حاجة إلى أن يبتكر المعلم ويفهم ويتحدث نفس لغة الطالب، وهذا التقارب بين الطرفين أمر أساسي، والعلاقات العاطفية مهمة، لأن بناء ونقل المعرفة المقترحة من قبل المدرسة ينتهي إلى إنشاء علاقة شخصية، وتبادل الخبرات بين الأفراد.

نسبة كبيرة من المعلمين العاملين هم من الجيل الماضي، الذين لم يكن لديهم إمكانية الوصول إلى هذه التكنولوجيا أثناء تكوينهم، وبالتالي ينتهي بهم الأمر إلى عدم وجود علاقة جيدة مع هذه الأجهزة التكنولوجية، بالإضافة إلى الخوف من التغيير؛ "إن الثبات الأحق هو بعبع العقول الصغيرة، حيث يقده صغار السياسيين والفلاسفة والكهان. إن الروح العظيمة لا شأن لها بالثبات" (إمرسون، 1999، ص. 33). في المدرسة، يظل هذا الشعور بالتناقض في أوساط المعلمين بين الرغبة في التغيير أو عدم التغيير، والرغبة في الجديد والخوف منه. بالنسبة لهؤلاء المعلمين،

من الضروري الإشارة إلى أن السبيل الوحيد للخروج من هذا الشعور هو التكوين المستمر حتى يتمكن هؤلاء المعلمون من التعامل معها بشكل أفضل وفهم التكنولوجيا كحليف في التعليم. في ضوء هذا ينصحنا باومان: - لا توجد طريقة لتصوير مجتمع المستقبل بدون التكنولوجيا. لذا، إذا لم تتمكن من التغلب عليها، يجب مواكبتها.

مشكلة رئيسية أخرى نواجهها في التعليم هي مسألة عدم انتباه الطلاب، حيث بين باومان أن الشباب لم يعد بإمكانهم الحفاظ على تركيزهم لفترة طويلة، فقد جلبت التكنولوجيا معها هذه الممارسة العملية، حيث كان من الضروري على التلاميذ/الطلاب قراءة عشرات الكتب للعثور على الجزء المطلوب، أما اليوم باستخدام بحث بسيط في غوغل يجد الشباب ملايين الإجابات على ما يحتاجون إليه، هذه السرعة تجعل من الصعب بشكل متزايد على المعلم الحفاظ على السيطرة في الفصل الدراسي/القسم، خاصة عندما تكون القراءات مطلوبة.

أحد أكبر التحديات التي نواجهها هو إبقاء الشاب والتلاميذ على اتصال مع المعلم في شكله المادي الجسدي. لقد فقدت شخصية المعلم سحرها وأصبحت مرادفة للمعرفة، التي بات التلاميذ/الطلبة يكتسبون منها خلال الأجهزة التكنولوجية عند الدخول إلى الإنترنت. "ويسجل متزينجير الأمر في معرض ملاحظته عن الفترة: " كنت أعلم أن هذه هي نهاية كل تعليم. أخيرا بدأ زمن التعبير الشخصي... وأخيرا ولى زمن المعلم " (لييوفتسكي و سيرو، 2012، ص. 38). الهاتف الخليوي أو المحمول هو أكثر الأجهزة استخدامًا، حيث يسهل الوصول إليه ويسهل حمله، وهو موجود وحاضر في الحياة اليومية للشباب. لقد أصبحت كتلة المعرفة المتراكمة التجسيد المعاصر للنظام والفوضى.

5. خاتمة

من خلال كل هذا، يمكننا أن نستنتج أنه من الضروري إعادة التفكير في نوع التربية والتعليم في مجتمعاتنا حتى يتمكن من التكيف مع العالم الحالي، اللحظي والمتغير، لكي تصبح قيمة التعليم المتحصل عليه والتربية التي تلقاها قيمة عملية التعلم وأدوات وليس التعلم نفسه. في مجتمع فقدت فيه المعرفة والعلم للحياة كلها فائدها ولكن أيضاً معناها، تم تصور قيمة التعلم كمنتوج يجب أن يخدمنا ويفيدنا من أجل معرفة-الفاعل (savoir-faire) ومعرفة العيش (savoir-vivre)، ولكن ليس من أجل المعرفة. في مواجهة هذا الوضع، يرفض باومان التعليم أحادي الاستخدام. إنه ينادي بالتعليم الدائم: التعلم المستمر طوال الحياة. علاوة على ذلك، يعرب الفيلسوف عن أهمية التربية على أساس الرغبة في التعلم. في النهاية، كلما عرفت أكثر، كلما أردت أن أتعلم أكثر.

يكمن طريق النجاح في أن تكون ذاتك وعلى طبيعتك، وأن تكون لديك أفكار جديدة، ومشاريع أصيلة مبتكرة، وإعطاء الأولوية للجودة والتنوعية على الكمية. اسمح لنفسك بالقيادة والتدفق/السيلان، والتعلم وعدم التعلم (النسيان)، وكن على استعداد للتغيير والتكيف مع الظروف. كن ذاتاً سائلة وقابلة للتشكيل ولكن مع معاييرنا الخاصة المكتسبة من خلال أدوات مثل التربية والتعليم السائل.

أخيراً، يفوض عالم الاجتماع هذه المسؤولية ويوكّلها للمحترفين التربويين والمعلمين، كل هذا مع التأكيد على أن هدف التعليم يجب أن يكون موجّهاً نحو بناء مواطنة جديدة، بعيداً عن التأثيرات الاقتصادية (économistes).

6. قائمة المراجع:

- 1- إمرسون، رالف والدو، (1999)، مقالات إمرسون – السلسلة الأولى والثانية –، ترجمة: أمل الشرقي، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان/الأردن.
- 2- الفريجات، غالب عبد المعطي، (2014)، مدخل إلى تكنولوجيا التعليم، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان/الأردن.

- 3- باومان، زيغمونت، (2016)، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة: سعد البازعي و بثينة الإبراهيم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة – مشروع كلمة، أبو ظبي/الإمارات العربية المتحدة. (أ)
- 4- باومان، زيغمونت، (2017)، الأزمنة السائلة: العيش في عصر اللايقين، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت/لبنان.
- 5- باومان، زيغمونت، (2016)، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت/لبنان - القاهرة/مصر. (ب)
- 6- باومان، زيغمونت، (2016)، الحداثة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت/لبنان - القاهرة/مصر. (ت)
- 7- باومان، زيغمونت، (2016)، الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت/لبنان. (ث)
- 8- توفلر، ألفين، (1995)، تحول السلطة – المعرفة والثروة والعنف على أعتاب القرن الحادي والعشرين – (الجزء الثاني)، ترجمة: لبنى الريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة/مصر.
- 9- توفلر، ألفين، (1996)، تحول السلطة – المعرفة والثروة والعنف على أعتاب القرن الحادي والعشرين – (الجزء الثاني)، ترجمة: لبنى الريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة/مصر.
- 10- زبيري، رمضان، (2015)، العولمة والبنى الوظيفية الجديدة للدولة، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان/الأردن.
- 11- شحاتة، حسن، (2008)، تصميم المناهج وقيم التقدم في العالم العربي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة/مصر.

- 12- صادق الأعرجي، علاء الدين، (2020)، نقد الحس النقدي عند العرب: دراسات، مقالات وأفكار، E-Kutub Ltd، لندن/بريطانيا.
- 13- عيد، أحمد جمال، (2020)، الحاسب الآلي بين التقنية والإبداع التشكيلي، دار الزيات للنشر والتوزيع، الجيزة/مصر.
- 14- غاردنر، هوارد، (2008)، خمسة عقول من أجل المستقبل، ترجمة: هلا الخطيب، مكتبة العبيكان، الرياض/السعودية.
- 15- كاسيرر، إرنست، (2018)، فلسفة التنوير، ترجمة: إبراهيم أبو هشيش، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/قطر.
- 16- ليبوفتسكي، جيل؛ سيرو، جان، (2012)، شاشة العالم: ثقافة-وسائل اعلام وسينما في عصر الحداثة الفائقة، ترجمة: راوية صادق، المركز القومي للترجمة، القاهرة/مصر، ط. 1، 2012.
- 17- ليبوفتسكي، جيل، (2018)، عصر الفراغ – الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة –، ترجمة: حافظ إدوخراز، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت/لبنان.
- 18- موران، إدغار، (2002)، تربية المستقبل – المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل –، ترجمة: عزيز لزرق و منير الحجوي، دار توبقال للنشر - منشورات اليونسكو، الدار البيضاء/المغرب-باريس/فرنسا.
- 19- نوسباوم، مارثا، (2016)، ليس للربح: لماذا تحتاج الديمقراطية إلى الإنسانية؟، ترجمة: فاطمة الشملان، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت/لبنان.
- 20- هابر، جوناثان، (2022)، التفكير النقدي، ترجمة: إبراهيم سند أحمد، مؤسسة هنداوي، وندسور/المملكة المتحدة.

عنوان المقال: (الخط: Sakkal Majalla، حجم الخط غليظ 13)

21- هوبزباوم، إريك، (2007)، عصر الثورة: أوروبا (1789-1848)، ترجمة: فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية-المنظمة العربية للترجمة، بيروت/لبنان.